الفصل العشرون

الـــــــزراعة

الزراعة هى صناعة أو علم أو فن هدفه استغلال الارض ، لكي تنتج وسائل التغذية البشرية ، أما فى المعني الاوسع فأن الزارعة تشمل تربية الماشية

هذا وتاريخ الزراعة هو تاريخ الانسان منذ أبعد العصور ولهذا كانت الامم القديمة تنسب الزراعة الى أصل سماوي : « براهما » في الهند و « إيزيس » في مصر ، و « ديميتر » فى اليونان ، و « سيريز » في ايطاليا بوصف أن الآلهة قد خلقت الزراعة .

كانت الزراعة وحشية وصغيرة ، وكانت الاقوام تنتقل من أرض الى غيرها . وقد رافقت الزراعة والرعي الحياة البدوية وشبه البدوية كما وصف سيزار وتاسيتاس القبائل الالمانية . ثم تقدمت حين عرف السماد والحرث ، إذ كانت الزراعة قبلا تجري بالتجربة والعرف . أما الآن فطبقاً للعلم

ومما يدل على قدم الزراعة ، أن مصر عرفتها قديماً ، وكانت تجري فيها وفاقا لرغبات الملاك وحال المستأجرين والاسرى . وذلك لان ري الارض كان ميسوراً من ماء النيل . وعرفت مصر أيضاً المحراث الخشبي

وكانت اليونان تؤثر زراعة الكروم على الحبوب لان البلاد اليونانية جبلية « يراجع تاريخ النبات وأصل النبات تأليف ثيو فراستاس »

أما في بابل فقد قامت الزراعة بين الدجلة والفرت وآشور جنوبا . وكان الاسرائيليون زراعيين ، ولهم قانون يوزع الارض بين البالغين الذين أحصي عددهم قبلا قبيل دخول كنعان ، فكانوا ٦٠٠٠٠٠

هذا ويقول السير آرثر العالم « الانتروبولوجي » إن الانسان الكرمانيوني

الذى عاش فى أوروبا منذ عشرين ألف سنة ، وجد القمح مزروعاً برياً فخففه وطحنه وتغذي به . هذا وقد وجدت حبات من القمح فى بعض المقابر المصرية القديمة. قلنا إن المفترض والمظنون ان اليابسة قد صلحت لانبات النبات منذ شرعت القشرة الارضية تدنو من الدفء والحرارة ، ومن هنا كانت الحياة النباتية أسبق عمراً من الحياة الحيوانية لان الحيوان لاغنى له عن أكل النبات ، وان كان من النبات ما يأكل الحيوان . وجد الانسان البدائي نباتاً بريا وحشياً ينمو من تلقاء نفسه كالاعشاب وثمار الاشجار ، فأكل منه وأصبح طعاماً اعتيادياً له. فاذا هلك النبات أو اختفى لاسباب طبيعية من حالة أتربة الارض أو الرياح أو الامطار المدمرة ، انتقل الانسان الي مكان آخر لعله يصيب فيه نباتاً أو ثمراً . ثم تعلم الانسان ، من نظرته الي ما يأخذ به النبات أو الشجر نفسه من أسباب النمو والاكتمال ، كيف يسيطر على الطبيعة ذاتها ، فيعمد الانسان إلي القاء البذور عند شواطيء الانهار أو حيثما ينزل المطر. أما متى بدأ الانسان يصنع هذا ، فان البحوث العلمية لاتزال قاصرة عن تحديد تاريخه ومن أجل هذا تباينت آراء العلماء ، وقد انتهت ظنونهم منذ مطلع هذا القرن الي أن ثم زراعة عرفها الانسان منذ ١٢ ألف سنة أو أكثر إلي عشرين ألفاً ، حين كان الآزيليون يسكنون جنوب أسبانيا ، وكان الباقون من الصيادين البدائيين يذهبون شمالا وشرقا فى شمال أفريقيا وغرب آسيا . وحين كان الذين يسكنون وادى البحر المتوسط ، قبل أن يصبح بحراً مغموراً بالماء ، يعرفون منفعة الحيوان ويؤلفونه ، وينتشرون في مراعيه ، ويعدون لانفسهم ولماشيتهم مايصلح للطعام من خالص انتاج الارض ، متخذين الأدوات الحجرية المنقورة وناسجين من الالياف النباتية خيوطاً وأثواباً ساذجة ، وصانعين من الطين أوانى فخارية رديئة الشكل استقبل الانسان حينئذ عصراً جديداً في الثقافة الانسانية ، وهو العصر « النيولوتيكى » عصر الحجر الجديد على نقيض العصر « الپاليوليتيكى » عصر الحجر القديم ، وكانت شعوب الانسان وجماعاته تشمل أقواماً عديد: كالآزيليين والكروماجناريين والكرمانيين ، وكلما انتشروا في الأرض وجاسوا خلال

وديانها ، نشروا ثقافتهم الساذجة فى الزراعة والصيد وتأليف الحيوان والنسيج وصنع الادوات التافهة .

ومنذ ١٢ ألف سنة كان الانسان يعرف كيف ينثر البذر على الارض ، وكيف يحرثها ويدرسها ويحصدها ويستخلص حبوبها ؛ ويطحنها ويخبزها ؛ مستعيناً بحرارة الشمس ، فاما عرف كيف يوقد النار كان يعدها فى حفرة يضع فوقها العجين منشورا رقيقا جداً ، ومستديرا لكي ينضج في سرعة وفي أقل العناء . ولعل هذا هو الاصل في ما نعرفه الآن من الرقاق . ومن المحتمل أن يكون الانسان قد عرف الطحن قبل أن يعرف الزراعة ، لأنه كان يحصل على الحبوب برية وحشية من انتاج الارض في غير زراعة أو غرس من أحد .

ويقال إن فكرة الزراعة أي نثر الانسان البذور بيده على الارض قد اقترنت بفكرة أخرى ، هي التضحية بدم إنسان ، وخاصة إنسان محترم ، له منزلة الأله أو الملك أو ابناً أو بنتاً لأحدهما ، وذلك حين يقبل موسم الزراعة ، كما تحدث عن هذا السير ج . ج فريزر فى كتابه « الغصن الذهبي » . ولم يكن الانسان قد عرف التقاويم ولا ماهى السنة . ولعله عرف الشهور القمرية من من نظرته الي السماء معجبا بالنجوم أو متخذاً منها هاديا فى سيره . ثم عرف تحديد المواسم الزراعية ، وظهر بين مواطنيه السحرة والمنجمون ورجال الدين .

هذا ويطلق العالمان إيليوت سميث وريفرز اسم « الثقافة الهيليوليتيكية » أي الشمسية الحجرية على ما كانت هذه الجماعات والامم الساذجة تعرفه منذ ١٢ ألف سنة أو ١٥ ألف على سواحل البحر المتوسط وغرب آسيا ، وقد انتقلت جماعات من هؤلاء السكان إلي شرق الباسفيك ثم الى أمريكا ممتزجين بالمنغوليين الذين جاءوا من الشمال . وقد زاد المهاجرون علما فعرفوا بناء المساكن والمعابد والاهرام والوشم والختان وتحنيط جثث الموتى وشيئا من الفلك . وقد ظهرت هذه الحضارة البدائية في المناطق المعتدلة والقريبة من الحارة من ستوتهينج واسبانيا الى المكسيك وبيرو